الجمهورية العربية المتحدة

الاقليم الجنوبي

الادباء الشباب بين الجمود .. والثورية ..

لمراسل « الاداب » محيي الدين محمد

*

في كل امة ، وفي كل جيل ، ادب رسمي ، وادب اخر يعلن عنه الشباب ، ولم يستطع ان يحوز ثقة السلطة والتقاليد والاخلاق ، لانه نضالي ، ويهتم بتهديم قيم الثبات والتحجر ، قبل ان يهتم بالقيم الجديدة على اساس ان موقفه غير متهادن مع القيم الثابتة التي ينادي بها الادب الرسمي .

والادب الرسمي هو خلاصة التجارب الكهلة التي مر بها الادباء الشيوخ وانتهوا - بعد ان تخلوا عن نضالهم - الى صلح منفرد مع الاوضاع ، لايناقشون فيه شيئا ، قدر مايثرثرون في الجرائد والمجلات بذكر غرامياتهم القديمة ، واحلامهم ، وذكرياتهم في اوروبا .. الى اخره .. على افتراض ان هذا الصلح موقف يقرب مابينهم وبين السلطة التي تعبر عن رضاها بشراء كتبهم ، وايفادها الى المؤتمرات ، وكافة النجاحات الصغيرة الاخرى التي ترضى الانسان الذي اجتاز بعمره ،حد معرفة الفارق بين الصلابة والارتخاء .

في كل جيل من كل امة نجد هذه الظاهرة واضحة للغاية ، وخاصة في المجتمعات التي تقوم بثورات اجتماعية او سياسية ، تستهدف تغيير الاوضاع والارتقاء بها ..

منذ ثورة ١٩٥٢ السياسية والاجتماعية ، كان المظنون ان يخفت صوت الادب الرسمي ، ويموت ، لان الحاجة العميقة للتغيير قد عبرت عنها السلطات ، قبل ان تعبر الطاقات الشابة في الجمهورية ، وكان ذلك دافعا الى : اما ان يتحول الادباء الرسميون الى التعبير عن طاقات التطور التي اعلنت عنها الثورة ، وذلك برفضهم لموقفهم السابق ، او على الاقل بمجاراة هذه الطاقات ، عن طريق عدم التعرض للطاقات الشابة التي اضطرها الوضع للاعلان عن حاجاتها الاولية . واما ان يتحول الادباء الشباب نتيجة للمسلمة الاولى الى ادباء رسميين ، وذلك لا يعني التزامهم الخطوط التقليدية التي يلتزمها الادباء الشيوخ ، ولكن يعني ان حاجتهم العميقة للتغيير هي بالذات ، حاجة الدولة اليه ، وعلى ذلك يصبح هذا الصوت - صوت التغيير - هو الصوت الرسمي للادب في الجمهورية .

بعد ثورة ١٩٥٢ ، لم يتحول الادباء الشيوخ عن موقفهم السابق ، وظلوا برغم ذلك ، المعبرين عن الادب رسميا ، مع انهم لم يحركوا ساكنا عندما طالبهم الوضع ان يتكاتفوا معه . وظلوا يكتبون ادبا بعيد الصلة بالطاقات المتطورة . ادبا صرفا لارابط بينه وبين الحركات الاعتقادية الجديدة ، والطموحات الشابة التي لم تكن تجد مايساندها قديما . وكذلك لم يستطع الادباء الشباب ان يحصلوا على رضى السلطان ، بالرغم من انهم كانوا صوته ، على اساس انهم ينادون بنفس القيم التي تنادى بها الثورة ، وتعلن عنها باستمرار ، وقد كان هذا موقفا فكريا غريبا ، استمر طيلة الاعوام التي اعقبت تمرد الثورة على القيم القديمة، وقد كانت الظروف السريعة التي اضطرت الادباء الشباب الى الامساك بزمام المبادرة من الشيوخ ، دافعا الى اضطرابهم الشديد ، والى اظهار ضعفهم ، على اساس انهم قد اصبحوا معبرين - بينهم وبين نفسهم طبعا - عن الحاجة الى الثورة ، قبل ان تصلب عظامهم ، وتعمق معلوماتهم ومعارفهم .. اي قبل ان يصبحوا مفكرين بديلين عن الشيوخ ، قيمة ونضجا ..

بالرغم من كل ذلك ، اي بالرغم من ان الادباء الشيوخ ظلوا محافظين فكريا ، ومعبرين عن النزعة القديمة ، وهي عدم الارتباط بالاوضاع والمواقف الاجتماعية ، واجترار كل القيم الادبية السابقة ، ومن ضمنها العزلة ، وكتابة الادب الصرف ، الذي هو تعبير عن بورجوازية فكرية ، بالرغم من ذلك ، وجد لادباء الشباب ان صوت الشيوخ اعلى من صوتهم، واضمن بقاء ، وادعى الى احترام دور النشر والمؤسسات الثقافية ، والاذاعية ، والجرائد ، من اصواتهم هم ، المفروض فيها ان تكون صوت الثورة والتحول والتطور ..

واشد مايخشى الان ، بالنسبة لهذا الفهم المغلوط ، ان يتحول الادباء الشباب تحولا خطيرا ، الى ان يلفظوا الثورية التي يعلنون عنها ، وان يصبحوا نسخا اخرى من الادباء الشيوخ ، وسوف يتبع ذلك بالطبع ان يصبح ادبهم ادبا رسميا باضعف صوره واشكاله ، وذلك لان تحولهم لن يكون جذريا ، اي بتاثير انتمائهم الى هذه النوعية من التفكير ، بقدر ماهو تحول شكلي يستهدف بعض المصالح الهامة مثل القدرة على النشر، والتافهة مثل الشهرة والثراء .

هذا هو الموقف امام الادباء الشباب بايجاز شديد ، والمطلوب الان ، على ضوء قلة معارف الشباب ، وعدم وضوح رسالته تماما ، بالنسبة لهذه الظروف الجديدة التي يحياها ، المطلوب ان يكتسب الادباء الشباب ثقة السلطة ، على ضوء عوامل التقصير التي يحسون بها ، من خلال مواجهتها بتظلمهم الى ان يكونوا المعبرين فعلا عن لسان الثورية الجديدة اي ان عليهم اولا ان يواجهوا هذا التقصير الذي يدفعهم دفعا الى الجنوح ناحية اليمين المتطرف ، وهو الموقف الذي وجد الادباء الشيوخ انفسهم معلنين عنه .

والتقصير الذي يحس به الادباء الشباب ، ليس مرده فقط الى ضعفهم الثقافي والفكري ، بل الى عناصر متشابكة ينزلق في تيارها الادباء بدون ان يدركوا مغبة هذا الانزلاق ، واول هذه العناصر هو الحاجة الى النشر . فالادباء الشباب يريدون ان يصل انتاجهم الى القراء باية طريقة ممكنة ، وهم يجدون ان الحاجة التي يعبرون عنها اصيلة وعميقة في قلوبهم ، الى درجة يستحيل انسكتوا عنها . صحيح .. ان تعبيرهم عنها قد يعني زيادة توتر الناس ، لانهم يعلنون الى شعب تقليدي ، رفضهم للتقليدية ، والتزامهم بالتطور والاحياء ، ولكنه صحيح ايضا انها رسالتهم الوحيدة ، وشرفهم الحقيقي الاصيل ..

واذن ، فانهم ، في رغبتهم العنيفة بتوصيل ارائهم للناس ، يجدون ان عليهم عبء اتخاذ التقليدي وسيلة الى نفس التقليدي . وبعبارة اخرى .. كيف يمكن لهم ان يوصلوا انتاجهم الى السوق الفكرية ، ان لم يكن بطريقة الصحف والاذاعة والكتب ، وهي كلها اجهزة تحترم الحس التقليدي وتعمل على ارضائه ؟!

فالصحافة تتطلب مستوى فكريا يلائم الوسط الشعبي الذي يبتاع الجريدة او المجلة كيما يسهل عليه ان يقيم الرابطة بين المعروضه في الجريدة ، وبين ملامحه الخاصة ، اي لو اننا افترضنا ان كاتبا مثل « كافكا » يقدم قصة اسبوعية في جريدة سيارة ، فلن يصعب علينا ان نبرر فشله الساحق في الارتباط بالناس ، والقراء على وجه الخصوص .

وذلك لان المستوى الذهني لعامة الناس يتطلب ان تتوجه اليه الجريدة بما يناسب ذهنيته ، وحتى اذا كانت الجريدة تبطن منهجا يتطوربالقاريء فانها تفعل ذلك بحساب شديد ، وايجاز ماهر .. وهي اذ تفعل ذلك، تضع نصب عينها مشكلة فقدان القاريء اذا ماعمقت معلوماتها اكثر من حد معين ..

واذن ، فالصحافة لاتستطيع - بسرعة السلطة - ان تصبح ثورية ، وهي لذلك تطالب كتابها ان تقل لديهم حدة الثورية ، وبعبارة اخرى تصبح الصحف ويصبح الكتاب معبرين عن اقصى اليمين ..

النشاط الثقافي في الوطن العربي

ولا يمكن بحال ان نربط بين الوضع الثوري الذي يتطلب من جميع الاجهزة نبذ التقليدية ، والجمود ، وبين رغبة الصحف في الانتماء الى قراء معينين . اذ ان التناقض بين كسب القارىء التقليدي ، وبين الثورية المفترضة ، يقرب هنا باتباع وسيلة صغيرة للغاية ، وهي ضم المفكرين الشبان ، والذين نجحوا قبل ذلك في اكتساب قيمة ادبية عميقة ، اثناء تمرسهم بالكتابة في المجلات الادبية ، او نشرهم للكتب ، ضم هؤلاء الى تحرير الجرائد ، على اعتبار انهم يضمون كفاءات فكرية ضخمة ، غير ان هؤلاء يتحولون بالنتيجة الى صحافيين بدون قيم ودون افكار ..

وثاني هذه النوافذ الاذاعة ، وخاصة البرنامج الثاني . مستوى المسموع يجب ان يكون اسطح واقل اعماقا من مستوى المكتوب ، وذلك صحيح حتى بالنسبة للادب الذي يهدف البرنامج الثاني الى نشره وتوسيع نطاقه .

فالمستمع مثلا لايستطيع بمثل الدقة التي يملكها القارىء ، ان ينصت الى محاضرة عن ادب سارتر او كامو ، وذلك لانه كقارىء يملك امكانية مراجعة النص ومناقشته ، اما المستمع فلا يملك مثل هذه الامكانية ، وعلى ذلك فالاذاعة تشدد على مستوى المكتوب ، وتريد له ان يكون واضحا وسهل الهضم .

ومن ناحية اخرى لاتريد الاذاعة الا ان تسير على مخطط رسمي ، يعتمد معظم الاعتماد عى الاسماء الكبيرة ممن اصطلحنا على ادراجهم ضمن الادباء الشيوخ ، وهي لاتحترم الاعمال الفنية ولا النقدية التي يكتبها الشباب ، على اساس ان الشيوخ يملكون ضمانة اسمائهم وماضيهم الفكري ، وتبعا لذلك ، يلاحظ المستمعون تكرار الاحكام ، وتكرار الجمل والعبارات التي يستشهد بها نقاد كبار ومفلسون ، ضد ، او مع اعمال ادبية متعددة ، الى حد ان صارت بعض هذه العبارات امثلة للتفكه والتندر ..!

وثالث هذه النوافذ الكتب . وقياسا على ماسبق ان تكلمنا عنه بالنسبة للصحافة والبرنامج الثاني ، يتمسك الناشرون بالكتاب الشيوخ على اساس احترام القارىء لاسمائهم وشهرتهم ، وليس على اساس قيمة ما يتقدمون به . ويقينا ، لو تقدم « وليم فولكنر » برواية (الضجة والغضب) باسم « عبد الشهيد عثمان » مثلا ، الى ناشرينا ، لرفضوه ولاهين حتى النخاع .. وذلك لانهم لايقيمون العمل بما فيه ، ولكن بمعرفة القارىء لهذا الاسم او ذاك ..

هذه الاجهزة مازالت حتى الان تعمل كان لم تكن هناك ثورة ، او تغيير فكري ، او تطوير الى ابعد حدود التطور للذهنية البورجوازية القديمة التي أعلن عنها بعض الشيوخ من الكتاب ، وما زالوا يعلنون عنها في كل مايكتبونه وما يفكرون به ..

وموقف الاديب النضالي من هذه الاجهزة ، هو بالضبط موقفه من الاوثان المجتمعية التي يثور عليها والتي يطالب بتجديدها واضاءتها ، على اساس انها لا تناسب الحياة الجديدة التي يحياها ، ولا تناسب تطلعاته، ولا تطلعات الثورة التي ينطق هو باسمها .

عندما قامت في انكلترا وامريكا حركتا الغاضبين والمتمردين ، وعلى رأسهم جون اوسبورن وجاك كيروك ووليام لى وآناتول بروياردو ور.ق. كاسيل ، كانتا مناوئتين للسلطتين الشرعيتين في البلدين وهما السلطة الحكومية والسلطة الشعبية . اي لم يكن هناك جدار يسند الحركتين، ويقوي ظهرهما ، باعتبارهما دعوة الى حرية فوضوية ، لاتستطيع ان تضع فارقا سلوكيا بين الرغبة ، مجرد الرغبة في اطراح التقليدي ، وبين اطراح الاخلاق ..

ووجدت السلطة الحكومية ان عليها ان تقاوم هذا التيار الذي اسمته عبثيا ومخربا ، فاستكتبت بعض كبار المدرسين والمفكرين في جامعتي اوكسفورد وكيمبردج ، مقالات ودراسات متعددة ، تفسر اسباب نشوء هذه الحركة ، وتحلل مبرراتها ، وتطلب الى الشباب ان يتحللوا من الارتباط بها ، على اساس انهم فئة غاضبة ، سوف تتصالح مع اوضاعها قريبا .. ووجدت السلطة الشعبية ان عليها ان تعرف اهداف هؤلاء اولا قبل الحكم عليهم ، وهكذا صدرت كتب الغاضبين ، ومثلت مسرحياتهم ونشرت دراساتهم وتعرفوا الى الناس ، واصبح بعضهم كجون اوسبورن وويلسون وكيروك ، من اخطر كتاب اوروبا تاثيرا ، واعمقهم ثقافة ..

لقد تم هذا التدشين لسبب واضح وبسيط ، هو ان الناشر الغربي يعرف اولا قيمة الكتاب الذي بين يديه ، وهذه المزية ، توضح مدى مايتمتع به الاديب الشاب في اوروبا وامريكا من قدرة على الوصول الى الناس والتاثير فيهم ، مهما كان معارضا للنزعة الحكومية ، او لاهواء الناس ..

اما هنا ، فالاديب الشاب لايستطيع ان يبلغ صوته الى الجمهور ، بالرغم من انه يعلن تماما عما تعلنه الاجهزة الثورية في الحكومة ، وذلك لان الاجهزة الثقافية وحدها ، مازالت تعيش في عهد الخديو .. والاتراك.

اما بالنسبة الى ضعف الاديب العربي الشاب ، فكريا ، فهو ضعف موقوت بهذا التردد والقلق الذي يحياه ، والذي يدفعه مرة الى اقصى اليمين ، لكي يتمكن من النشر ، ويدفعه مرة اخرى الى اقصى اليسار، حين يحتاج الى ان يستمد من معينه الثوري مايكتبه ، محتفظا به في الادراج ..

واحسب ان هذا التناقض بين الكيف العميق فيه ، والكيف المطلوب منه ، هو اساس تبرمه وتشاؤمه وعذابه ..

القاهرة — محيي الدين محمد

*

الاقليم الشمالي

صراع بين عقليتين

لمراسل « الاداب » محيي الدين صبحي

*

منذ ان يعيد المرء نظره في الجو الادبي ، يستطيع ان يميز فئتين:فئة تعلم الادب وتتعلمه على انه صنعة ذات اصول ومقاييس ثابتة استنبطها اساتذتهم من قبل ، وهم يسيرون على سنتهم ، وفئة تنظر الى الادب على انه حركة ديناميكية فيها مرونة الحياة وعضوية الاجساد ، لذلك تفنى بعض القيم وتتولد نواميس جديدة ويحل الحديث الطريف محل القديم البالي او يماشيه جنبا الى جنب بحسب شدة التطور وشدة التوتر التي تمليها الحياة المعاصرة ..

ومن المالوف ان يكون انصار الفئة الاولى هم الفئة المحافظة التي تدرس التراث القديم وتستنتج معالمه ومناهجه ، وتقدم عصارة ابحاثها الى الاجيال الطالعة لتساعدها على التعبير والتطوير ، ولكي تحافظ على خيط يشد الحاضر الى الماضي او يربطه به فتظل للادب روح موحدة وطابع واحد يبرز شخصية الامة وخصائصها في التفكير والتعبير .

كما ان من المالوف ايضا ان يكون انصار الفئة الثانية اشخاصا متمردين يرتبطون بواقع الحياة وايقاعها العنيف اكثر مما يلتصقون بالكتب المتوارثة والورق الاصفر او الابيض ، ويرون في الحياة اليومية غناء عن اشارات الماضي ، ويجدون في متناقضات الواقع من العمق والالحاح والايحاء مالا يخضع لقاعدة ولا يدخل في تبويب او ينحصر في تصنيف .

ولا ريب في ان الخلاف يشتد كلما انقطعت الصلة بين التراث والابتكار، وكلما تصلبت شرايين القديم او زاد طموح الجديد وجموحه..

النشاط الثقافي في الوطن العربي

وايضا حين يحمل كل من الطرفين مخططا اشمل للميادين التي يريد ان يفتتحها ، وبذلك نخرج من مناقشة المضمون احيانا الى مناقشة مشروع حضارة بكامل وجوهها يبشر بها طرف وينكرها طرف اخر.. ولا ريب ان الخلاف ينعدم حين تتواكل الفئتان وتقنع كل منهما باللقب والمركز والتحديد الذي يهبها اياه المجتمع : هذا اديب شاب وهـذا اديب محافظ .

ونحن ـ بعد ان استعرضنا في الرسائل السابقة ـ طفرة الابداع لدى الادباء الشبان ، لم نجد فيها الاصالة التي تكفي لتصدم المفهومات القائمة وتقلب عالما من الجمود ظل يرهق ضمائرنا خمسة عشر قرنا . ذلك ان ادباءنا ما زالوا يتحسسون التكنيك ويتلمسون طرقهم في ابتكار اساليب جديدة للتعبير ، وبذلك اهملوا المضمون او كادوا ! وفي كل مرة يحاول اديب شاب ان يعبر عن افكار ثورية يهبط مستوى الاداء الفني الى حد التقرير والخطابة ! ان الشباب ليسوا خطرين .. هذا ما يطمئن الرجعية في جميع اشكالها : الرجعية الاجتماعية التي تعارض أي تحرر فردي ، والرجعية الاقتصادية التي تنكر اهمية اي تخطيط ، والرجعية السياسية التي تحول دون المواطن ودون تحميله اية مسؤولية يشارك فيها ببناء الوطن الذي يدفع من اجله الضرائب.. والرجعية الفكرية التي تحرم حق التفكير الحر على النـاس دون الخضوع لمسلمات متوارثة قررها اغبياء ليس بينهم وبين حضارة العصر الحديث صلة او نسب . ومع ذلك فان الفئة المحافظة التي تدعي ان الادب صنعة ذات اصول ومقاييس لا يجوز للناشيء ان يخرج عليها .. هذه الفئـة لم تستطع ابدا ان تطرح قيمـا ولا ان تولد مقاييس . انني لم اقرا اي شرح ولا دراسة وافية عن الادب القديم للمنادين بالقديم في الاقليم السوري ، ما عدا الدراسة الرصينة التي قدمها الدكتور شكري فيصل عن الغزل في العصرين الجاهلي وصدر الاسلام . ان طبقة المحافظين هي طبقة الدكاترة ... « دكاترة الادب» واكثرهم فئة تستمد وجودها الادبي من اللقب والمنصب الذي يسند الى هذه الشهادة والامتيازات التي تمنح لصاحبها : الوفود الادبية والبعثات وصدور المجـلات الحكومية والجرائد المحلية ... وهذه التسهيلات جميعها لم تكن لتفرضهم على الجمهور .. ان النـاس يحتاجون الى عقيـدة والى اناس يحدثونهم عن حيـاتهم وواقعهـم ويساعدونهم على تكوين رؤية سليمة لمستقبلهم وبلورة صحيحة لامانيهم وللآمال التي يعيشون من اجلها ... انهم يحتاجون الى مثل هـذا الحديث بلهجة حانية متواضعة ولغة عملية بعيدة عن تعقيدات الثقافة والفاظ المثقفين ، لكن الدكاترة ـ معظمهم ـ يعرفون ان ما يكتبونه ـ اذا كتبوا ـ هو احدشيئين : فارغ اجوف مكرر ، او بعيد معزول مهزول . وهم في الحالتين لا يكسبون قراء ولا شهرة ، وهم يعرفون فيما بينهم وبين انفسهم ذلك ، ولهذا السبب بالذات تراهم لا يعرفون كيف يكتبون ؟! انهم يرتكبون ، وهذا ما يزيد سوءهم سوءا وضحالتهم تعقيدا ، وهذا ما يجعل موضوعات كتاباتهم تدور حول الادب : انها ليست ادبا وليست نقدا وليست موضوعات اجتماعية ولا اخلاقية ولا فلسفية كما انها ليست عكس ذلـك ! وللبرهان على الكتـابة في « اللاموضوع » نذكر القراء باننا في الرسـالة الماضية من الآداب تحدثنا عن نتاج الادباء في الاقليم الشمالي ، وقلنا ان كتاب الدكتور صالح الاشتر عن شعر النكبة لا يحوي أي نقد او تحليل او بصر عميق في الشعر ولا في الكشف عن اسبابه . ويبدو ان النقد العلمي لم يرق في نظر الدكتور فكتب مقالة مطولة في جريدة الوحدة نجتزيء منها بمطلعها :

« جهاز الهاتف في بيتي خرج منذ شهر عن صمته ووقاره ، ليرن دون انقطاع ، ويحمل الي اصواتا غريبة لا اعرف اكثر اصحابهـا ، وهذه نماذج مما تنقله الي :

ـ هل قرات ما كتبه عنك فلان في مجلة الآداب البيروتية ؟

ـ لا .

ـ ان فيها حملة محمومة على بعض كتبك ، وكاتبها يجردك من كل امكاناتك ، ويسخر منك ..

ـ ومن هو فلان ؟

ـ مراسل تلك المجلة في دمشق ، يكتب في الصحف ، وينقد ، وله لسان طويل ، واسمه قبل ان يخرج من الجامعة كذا ..

ـ اسمه فلان ! يا لهزل المواهب .. اني مـا ازال اذكر عرق الخجل وهو يتصبب منه عندما كان يؤدي بعض امتحاناته امامي ، فلا تستقيم الجملة العربية على لسانه !

ـ كنت اذن استاذه ؟

ـ لا . ولكني كنت ثاني اثنين من اساتذة الجامعة في الامتحان، فلما حكمنا برسوبه بكى واستبكى ، ولم يجد في اللجنة من يرق قلبه له ، فالجميع يعرفون عقده وغروره واخفاقه !

ـ هذا اذن سر « انتقامه » ! »

اظن ان تلك السطور لا تشرف كاتبها سواء كان استاذ جامعة او غير ذلك ، لانها لا تقيم له الحجة على نقد ولا تدحض برهانا قدمناه ولا تنقض حكما ابرمناه . لقد نقدنا كتابه فذكر احوالا شخصية يعف عن سردها اقل الناس حظا من تربية وذوق . لقد حـاول الدكتور المذكور اعلاه ان يؤلف كتابا عن شعر النكبة فاكتفى بان جمع قصائد من هنا وهناك دون تصنيف ولا ترتيب ولا نقد ولا تحليل ... فلمـا لفتنا نظره الى هذا التقصير الفاضح هاج وماد وانهـار وقام يدفع التهمة بالسباب ..

هذا هو مستوى بعض الدكاترة وهذه عظمة من يناط بهم ان يحافظوا على التراث ويربطوا الحاضر بالماضي بنوع من الاتزان والعمق. اننا مبتلون وسوف نصمد ... واظن ان المقارنة بين جيل الشباب وادب بعض الدكاترة اوضحت اي الفريقين اصدق سبيلا واقوم منطقا، والى اي درجة من النضج وصلت افكار بعض الناس ومواقفهم .

دمشق ـ محيي الدين صبحي

صدر حديثا :

الطبعة الثانية من ديوان

قصائد عربية

للشاعر سليمان العيسى

دار الآداب ـ بيروت